

تعليمية اللغة العربية وكور اللسانيات في ذلك

د. مصايح محمد
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الوشرسي - تيسمسيلت

ومن ضمن كل ما سلف ذكره، الذي يهنا هو أهم ما برز إلى الوجود من النظريات اللسانية، على اختلاف وتعدد توجهاتها: الاتجاه الوصفي (البنوي) واتجاه الشرح والتفسير (التوليدي)، والاتجاه التداولي (البراغماتي)، والتي يمتلك كل منها مناهجه ونظرياته في معالجة اللغة، التي تبقى النظريات الحديثة وحدها الرافد الوحيد في تطوير مناهج دراستها، وقد تحققت بعض الإنجازات في هذا المجال، ظهرت في الكتاب المدرسي وفي بناء المعاجم وفي التوثيق باللغة العربية.

وقبل الولوج إلى التنقيب في ثانيا المناهج الغربية الحديثة - على اختلاف حقولها - التي لا يمكن نكران أفضالها، خاصة في خدمة الكتاب المدرسي، يجب القول: إن هناك ظواهر كثيرة عولجت بدقة عالية، في تراثنا اللغوي العربي، هذا التراث الذي بني على أسس نظرية ومنهجية متينة، أقوى من الأسس النظرية والمنهجية التي تقوم عليها النظريات الغربية، إلا أن باحثينا لم يتمكنوا لحد الآن من التعرف بشكل دقيق على الأطر النظرية والمنهجية لهذا التراث، بشكل يسمح لهم بتأصيلها، في النظريات اللسانية الحديثة، التي يتبادر إلى الأذهان أن أغلبها مأخوذ⁽⁶⁾ من التراث اللغوي العربي الفذ، ومنها تلك الأسس التي بني عليها النحو العربي، وفقه اللغة، والمعاجم العربية، وعروض الشعر والبلاغة وغيرها.

ومادام الأمر كذلك، كان لا بد على الباحث اللغوي، أو اللساني، في مجال اللغة العربية، أن يكون ملماً ومتمكناً من تراثه اللغوي، ومن النظريات التي بنيت عليها مختلف مجالاته البحثية، واللغوية منها خاصة، كما عليه أن يكون عارفاً بمختلف التطورات العلمية، في مجال اللسانيات العامة، والتطبيقية كما ترد في النظريات الغربية الحديثة، قادراً على قراءتها بلغتها الأصلية، لا بترجمتها وحسب، التي عادة ما تكون قاصرة ومحرقة، أن يتخصص في إحدى النظريات العلمية المعروفة، بأصالتها في مجال البحث اللساني، ويوظف أدواتها في بحثه، حتى يكون تحليله للغة العربية علمياً، يسهم به في إدخال اللغة العربية في مجال البحث العلمي العام في العلوم الإنسانية.

2- اللغة العربية أنموذجاً عالمياً للدراسة.

إن المتفحص في الدراسات اللسانية الغربية المعاصرة، يكتشف أن اللغة العربية كانت موضع اهتمام أكثر علماء اللسانيات تميراً في هذا العصر، وقد اهتمت هذه الدراسات بها من حيث إنها تمثل لغة حية طبيعية، يمكن أن تسهم في تقدم البحث اللساني النظري، ومن أعلام الدراسات اللسانية الذين اهتموا باللغة العربية⁽⁷⁾ رومان جاكوبسون

بعد علم اللغويات والصوتيات علماً قديماً في الأقطار العربية، اهتم بوصف خصائص وميزات اللغة العربية، كما قال الباحث عبد الرحمن حاج صالح: "لقد ظهر علم اللغويات العربية إلى الوجود في القرن الثامن مع بداية انتشار الإسلام. ومن الممكن توسيع هذه البداية المبكرة آخذين بعين الاعتبار الحاجة الملحة التي شعر بها أعضاء هذا المجتمع الجديد للتعرف على لغة القرآن التي أصبحت اللغة الرسمية في الدولة الإسلامية الفتية"⁽¹⁾. وقد أثبتت هذه العلوم أن انتظام بنية الجملة النسبي في اللغة العربية يؤدي إلى سهولة انتشارها وتطبيعها، إضافة إلى ذلك فإن هذه اللغة تتميز بإمكانية - بدءاً من جذر واحد واعتاداً على النظم الاشتقاقية والتصريفية - الحصول على عدد كبير من الكلمات، أو صنع مفردات، لكل منها نموذجاً ومعنى خاصاً بها من زاوية معينة، مما يجعل اللغة العربية أكثر ملائمة للاستخدام في الحواسيب شأنها شأن الإنكليزية والفرنسية، وسائر اللغات اللاتينية، مما يعطيها دعماً كبيراً لاسترجاع ما أهمل منها عن طريق التكنولوجيا الحديثة.

إذا كانت الحضارة العربية قد بنيت اعتماداً على تمثيل النص المكتوب تمثيلاً فريداً بنشر القرآن، فإن النص المحكي أكثر تنوعاً حيث يصعب وصف المنظومة الصوتية وصفاً دقيقاً، ويتعذر حصر وإحصاء تصنيفاتها، ويعتبر العالم العربي علماً تتعدد وتنوع فيه أشكال الكلام، حيث العديد من اللهجات ليصبح من المحال الحديث عن علم صوتيات واحد⁽²⁾، بحيث رغم أن اللغة العربية المحكية فصحي في مختلف الأقطار العربية، إلا أن المقاطع الكلامية لمستخدميها متباينة، وآلية تجسيدها ضمن الجهاز الصوتي مختلفة.

1- اللسانيات واللغة العربية.

فإذا كان الغرض من بحثنا هو تعليمية اللغة العربية، فوجهة نظره تتعلق بالإفادة والاستفادة، بين تراثنا اللغوي، والنظريات⁽³⁾ اللسانية الحديثة، فلا نهم - في هذا الموضع - بتعريف المصطلحات العلمية الأساسية في النظريات اللسانية المعاصرة، مثل اللغة، والنحو، واللسانيات والنظرية والمنهج⁽⁴⁾ والنموذج⁽⁵⁾، وغيرها من المصطلحات العلمية، التي أصبحت أدوات إجرائية، لا مناص منها، يوظفها اللساني في بناء نظريته العلمية حول اللغة، ولكن نريد التنبيه إلى أن اللغة أصبحت موضوعاً للدراسة، تنقسم عدة علوم، منها الفلسفة، وعلم النفس، والمعلوماتية، والتداول والمنطق الطبيعي، وعلوم التربية، وغيرها من العلوم الأخرى ذات الصلة باللغة.

المدارس النحوية العربية لا تختلف بين بصريين وكوفيين وبغداديين، مكاتبًا، بل تختلف زمنيًا ونظريًا، بين المتعاصرين.⁽¹⁵⁾

وقد قال مايكل بريم في مقدمة رسالته للدكتوراه: "إن اللغة التي سأدرّسها في هذه الرسالة لغة حية، فهي اللغة الأدبية التي توحد الدول العربية، وهي التي لا تزال مستعملة في المدارس والمحاضرات والإذاعة والصحف والتمثيل والوظائف الرسمية الأخرى، إن الزعم بأن هذا النوع الأدبي من العربية نوعٌ مصنوعٌ وسطحي، قولٌ لا يدل إلا على جهل قائله، بل إن الفروق التي تفصل بين اللغة الأدبية العربية، من النوعيات العامة المختلفة إنما هي فروق مبالغ فيها في الدراسات السابقة. . ."⁽¹⁶⁾ إلى غير ذلك.

وقد أشار الباحث من خلال مقالته: (مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة)⁽¹⁷⁾ إلى أن البحوث الغربية -التي عرضنا جانبًا منها- تدل على أن اللغة العربية لا تزال مجالاً يكرّس للدراسة، فهناك قضايا كثيرة جدًّا في اللغة العربية الفصحى وفي اللهجات العربية لم تبحث، ولم تدل حقلًا كافيًا من البحث، أو إعادة النظر والتحليل والتروى. وذلك - حسب - مدعاة إلى التفاؤل، حيث أن وجود هكذا قضايا يعطي حافزًا للعمل بحسب في البحث اللساني في هذه اللغة، لأن هناك جوانب عديدة لا تزال بحاجة إلى دراسة، وقد اشترط للنهضة باللسانيات في العالم العربي، فهم النحو العربي بمنطلقاته الفكرية وتقنياته وأطره النظرية، غاية الفهم، مع تقبل أن الدراسة اللسانية الحديثة قادرة على مدنا بالأدوات المنهجية والأطر النظرية التي نستطيع بها فهم النحو العربي فهمًا دقيقًا، وذلك هو "إحياء التراث".

وفي هذا دليل كاف ومقنع، على أن اللغة العربية ليست -كما يروج بعض المعنويين- لغة متخلفة، قد عفا عنها الزمن، ولم تعد تصلح للعصر الحالي، بل لا تزال مخبرًا محاطًا بالكثير من الأسرار والألغاز التي لا تنتهي، وهي اللغة الوحيدة التي لها أصول وجذور في أعماق التاريخ، وأغصان ساقطة في العصر الحالي، متطلعة إلى المستقبل، في الوقت الذي لا تبلغ فيه لغات العالم جزءًا من العشر من عمرها، وبذلك ينبغي أن تحتل مكانتها الرائدة بدون منازع، متزعمة اللغات الحية، التي تدل الكثير من التنبؤات على أنها صائرة إلى الزوال، شأنها شأن سابقتها من لغات العالم المندثرة.

3- المذاهب اللسانية.

لا يمكننا في هذا المقام أن نطلع اطلاعًا وافيًا، على كل ما يتعلق باللسانيات الحديثة، ومذاهبها التي تتفق على أشياء، وتختلف حول أخرى، وتنوع مناهجها في شكل نزعات وتيارات يمكن أن يصطلح على تسميتها بالمدارس اللسانية، والتي نحاول فقط أن نصفها، لترسم بذلك خطاطة موجزة، نعلم من خلالها موقع المذاهب التي أسهمت بقوة في تعليمية اللغات، حيث تنفرع اللسانيات العامة إلى ثلاثة فروع أساسية هي: - اللسانيات البنوية - اللسانيات التوليدية والنحوية - اللسانيات التداولية.

Roman Jakobson في مقاله الأصوات المخفمة في اللغة العربية⁽⁸⁾ واستعمالها للاستدلال على نظريته حول (الملاحم التمييزية) في التحليل الفونولوجي للغة الإنسانية، كما كتب زيلك هاريس Zellig S. Harris مقالاً عن (الصوتيات) في اللهجة المغربية⁽⁹⁾ قصد منه إيضاح ما كان يسمى (إجراءات الاكتشاف) في الدراسة اللسانية البنوية في أمريكا، كما كتب جوزف جرينبرج Joseph.H.Greenberg مقالاً عن (نقط الصرفيات الأصول) في اللغات السامية⁽¹⁰⁾ اتخذ فيه العربية كنموذج لهذه اللغات بسبب وفرة المعلومات المعجمية ومحافظتها النسبية في نظامها الصوتي⁽¹¹⁾ ومن هؤلاء اللساني البريطاني الشهير فيرث J.R. Firth الذي كتب تحليلاً صوتياً للغة العربية، يبين فيه تطبيقه لمنهج في التحليل المسمى بالتحليل التطريزي Prosodic analysis⁽¹²⁾.

كما يقول عالم اللسانيات الأمريكي المعاصر فرد هوس هولدر Fred Householder وهو يقدم مجموعة من المقالات التي جمعها سلمان العاني، وصدرت له عن نادي اللسانيات في جامعة إنديانا الأمريكية، "عندما قرأت هذه المجموعة المختارة من المقالات، ظهر لي أنه من الصعب أن تجد أية مجموعة من المقالات أكثر تمثيلاً

منها لمختلف فروع اللسانيات، والمدارس اللسانية المتعددة. ذلك أنه يبدو من هذه المجموعة أن اللغة العربية تحوي مسائل لفتت انتباه أكثر العقول المهتمة باللسانيات تميزًا، وتوضح أكثر المفاهيم اللسانية الأساسية. ولو سئل أي لساني (اليوم) أن يسمي عشرة من أشهر المبدعين في اللسانيات وأكثرهم أثرًا فيما بين 1940 و 1970م فمن غير المحتمل أبدًا أن لا يسمي رومان جاكوبسون، وزيلك هاريس، وجوزف جرينبرج، وجورج تريجر. وتظهر هذه الأسماء كلها في هذه المجموعة. وعلى الرغم من غياب فيرث، وكنيث بايك، وأندريه مارتينييه من هذه المجموعة إلا أنها تشمل تلاميذهم، وإنك لتجد في هذه المجموعة أقسام اللسانيات الكبرى جميعها تقريبًا ممثلة، وربما يكون تمثيلها مكرّرًا مرات عديدة"⁽¹³⁾.

ولقد استمرت اللغة العربية في استقطابها لعقول متميزة في اللسانيات كما يكل بريم: إذ كتب رسالته للدكتوراه في سنة 1970م⁽¹⁴⁾ قدم فيها عملاً بارزًا، درس فيه التركيب الفونولوجي للغة العربية، كتطبيق لنظرية تشومسكي. (النظرية الفونولوجية) Theory Phonological وقد نشرت هذه الرسالة في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها واعتمدت كمرجع للدراسات الصوتية، إذ ظهرت الإشارة إليها في عدد هام من الكتب، والمقالات، بوصفها عملاً كلاسيكيًا في النظرية الفونولوجية، وفي الدراسات العربية.

وقد كتب جوناثان أوينز Jonathan Owens عن "بعض المفاهيم التي كانت وراء تطور النظرية العربية النحوية"، وقد ناقش في هذا البحث، بعض التحليلات المتعاقبة لبعض القضايا النحوية، ويشير إلى أن تغير التحليلات، يدل على التطور في النظرية النحوية العربية، ومثل ذلك التحليلات المختلفة عند سيويو والمبرد وابن الزجاج والجرجاني للإضافة؛ وتحليلات سيويو والأخفش والمبرد للمنصوبات، كما يرى أن

ولكن ما إن ظهر التيار اللساني التوليدي والتحويلي
Linguistique Générative et transformationnelle
على يد نعوم تشومسكي N. Chomsky، حتى تغيرت النظرة إلى
موضوع اللسانيات، إذ لم يعد هذا التيار يكتفي في بحث اللغة، بالوصف
المجرد، والتصنيف النموذجي لوحدة اللغة، داخل نظام نسقي، بل
تجاوزوا ذلك إلى الفعل الكلامي، والحركة الدينامية للغة، الموجودة بالقوة
وتحولها إلى فعل تبليغي يكشف عن الطاقة الإبداعية الخلاقة لدى كل
فرد متكلم.

أما تيار اللسانيات التداولية Linguistique pragmatique فلم يكتف بالإضافة التي زادها التوليدون، مع إبقائهم على أهم المبادئ
العامة للبنىوية، بل رفضوا المنهج البنيوي من أساسه⁽²²⁾ على اعتبار أنه
يقلص دور اللغة، في قواعد شكلية، رابطة بين العلامات فحسب،
ويهمل فاعليتها وفي ذلك تقليل من حجمها الحقيقي⁽²³⁾، وتقليص لدورها
كأداة تواصلية، ومن ثم كانت عنايتهم في بناء منهج مؤسسة على
(المتكلم - المخاطب - الفائدة المرجوة من الكلام - الظروف المحيطة
بالكلام - طريقة الكلام...).

اللسانيات التداولية وتعليمية اللغة.

يميل جل المهتمين بشأن التداولية إلى الإحجام عن تعيين موضوعها،
وتحديد مجال تخصصها، نظرا لتعدد توجهات اللسانيات التداولية،
وتشعب مواضيعها وكثرة اهتماماتها، الأمر الذي صعب على الباحثين
الاهتمام إلى رؤية موحدة أو مقارنة حول موضوعها، ومن جانب آخر
يعتقد هؤلاء أن تحديد موضوع التداولية هو عمل لا فائدة منه، بل فيه
زج للمبحث والباحث في ركن ضيق يحول دون التعمق والتحري
السديد في اللغة الطبيعية - على غناها - وما يتصل بها، إلا أنه وبالرغم
من الصعوبات المعيقة على تعيين حد موضوع التداولية.

فقد اقترح بعض الباحثين عدة تحديدات، أو بالأحرى استشرافوا
توجهات تتأشى وطبيعة هذا المبحث، فهناك من عدّ التداولية ذلك العلم
الذي يعالج العلاقة بين الأدلة ومؤولها، ومنهم من حصر وظيفة
التداولية في كونها تخصصا يدرس استخدامات اللغة داخل الخطاب، مع
السمات المميزة التي تؤسس وجهتها الخطائية، بوصفها ظاهرة خطائية
وتبليغية واجتماعية في الوقت نفسه، وبذلك يمكن مقارنة تعريف
التداولية، على أنها اتجاه لساني يهتم بدراسة اللغة، من حيث
الاستعمال، أو يعالجها من خلال أدائها وظيفتها التواصلية، وعليه فهي
تهتم بدراسة الاستعمالات اللغوية، لدى المتكلمين بأي لغة من اللغات،
في أي مجتمع كان وذلك بهدف الكشف عن سنن وقوانين سلوكيات
هذه اللغة وأهم مجال لتطبيقات التداولية هو تعليمية اللغات بعد أن
أصبح المتعلم هو المحور الأساس في العملية التعليمية التعليمية.

إذا استوحت المقاربة التواصلية في الاتجاه التداولي لتمكين المتعلم
من اكتساب كفاءات تواصلية تمكنه من التوظيف الجيد للغة التي
يتلقاها من وضعيات ومواقف اجتماعية مختلفة بدل أن ينحصر اكتسابه

1.3 - اللسانيات البنيوية: تتبنى المنهج البنيوي، وتضم البنيوية الأوروبية
بمدارسها (جنيف، وكوبنهاجن، والجلوسجية لليمسليف، والاتجاه
الوظيفي الفونولوجي بحلقة براغ والتركي، والمدرسة الانجليزية بفرعها
الصوتي لجونز والفيرثية).

1.1.3- البنيوية الروسية، وقلتها مدرسة قازان، ومدرسة موسكو.
2.1.3- البنيوية الأمريكية، وتضم اللسانيات النفسية، واللسانيات
السلوكية، واللسانيات التوزيعية.

2.3- تيار النحو التوليدي والتحويلي التي أسسها تشومسكي، وتعنى
بالصرف والتركيب والفونولوجيا والدلالة، باتخاذ النحو كجهاز⁽¹⁸⁾ لتوليد
الجملة في اللغة، يعمل على التمييز بين الجملة التي تبدو متماثلة، ولكنها
مختلفة والعكس.

3.3- اللسانيات التداولية، وتركز في منهجها على لسانيات الحديث،
ونظرية أفعال الكلام، وتداول الحوار، وهي مذهب لساني نفعي.

حد اللسانيات (Linguistique).

يقول جورج مونا Georges Mounin، في تعريفه
اللسانيات: "اللسانيات هي علم اللغة، أي الدراسة الموضوعية والوصفية
والتفسيرية للبنية، وتوظيفها (اللسانيات التاريخية) تهتم بتطور اللغة مع
الزمن، (اللسانيات الآتية) وتهتم باللغة الطبيعية الإنسانية، وتقابل أيضا
النحو (الوصفي والمعياري) وفلسفة اللغة (الفرضيات الميتافيزيقية،
والبيولوجية، والعلم نفسية، والجمالية، حول الأصل، والتوظيف،
والدلالة الأتروبولوجية الممكنة للغة)"⁽¹⁹⁾، ويعرفها أندري مارتي،
Andrée Martinet: "اللسانيات هي الدراسة العلمية للسان
البشري، إن دراسة ما تكون علمية حينما تتأسس على ملاحظة الوقائع،
وتتبع عن أن تفترض اختيارا من ضمن هذه الوقائع، باسم بعض المبادئ
الجمالية أو الذهنية"⁽²⁰⁾.

موضوع اللسانيات.

إن السؤال عن موضوع اللسانيات منهجي، وقد سبق وأن طرحه
دي سوسير F. de Saussure، ضمن الصفحات الأولى من محاضراته
الشهيرة، على الشكل الآتي:

- ما غرض اللسانيات الكلية والمحسوس معا؟

ليعلن عن الفكرة التي أنجز من أجلها محاضراته، مجيبا عن
التساؤل: "إن موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو اللغة Langue
في ذاتها ومن أجل ذاتها"⁽²¹⁾. وهو الموقف الذي أقام عليه عالم
اللسانيات هذا منهجه اللساني، المسمى باللسانيات البنيوية،
Linguistique Structurale الذي يحدد اللغة بوصفها نظاما نحويا،
موجودا بالقوة في الذاكرة الجماعية لكل أمة أو مجموعة بشرية، وما الكلام
سوى تجسيدا فرديا لذلك، قد يصيب ذلك النظام المتسق، وقد يخل
به، ومن هنا أبعد دي سوسير الكلام من جوهر الدرس اللساني،
واعتبره مجرد مظهر من مظاهر اللغة ليس إلا، على الرغم من ضرورة
وجوده كوسيلة دراسة تحقق المنهج العلمي.

حد ذاته يحسب لميدان التواصل، الذي باعتباره اللسانيات التداولية وقف على شتى أشكال الحوار، ليصنع منها استراتيجيات مسيرة للتخاطب، يعتمدها المتكلمون في شكل كفايات تواصلية تتم عن مقدرة على توظيف الآليات اللغوية، مستفيدة من علم النفس وعلم الاجتماع اللغوي وغيرها من العلوم، لقهر كل المعوقات النفسية، التي تعترض المتكلم خلال أدائه دوره التواصلية.

ولم تخرج التداولية إلى الوجود من غير داع، بل لابد من الإشارة إلى أنها جاءت كردة فعل ضد المناهج اللغوية الشكلية التي عملت على تعقيد الأمر وأدت إلى خلط بين الغايات والوسائل في عملية تعلم اللغات حتى أصبح من الأسير تعلم لغة والآن نفسه يصعب تعلم قواعدهم ومن هنا تقول إحدى الباحثات: "ينبغي أن نسجل أن التداولية نشأت كرد فعل للتوجهات البنوية، فيما أفرزته من تصورات صورية مبالغ فيها، خاصة عن اللساني الأمريكي تشومسكي وأتباعه، وكذلك الغلو في الاعتماد عند وصف الظواهر اللغوية على التقابل المشهور الذي وضعه دي سوسير بين اللغة والكلام، حيث أبعد الكلام الذي يمثل الاستعمال الحقيقي للغة ونظامها"⁽²⁹⁾ ولعل ما أعيب على المنهج الوصفي البنوي، من قبل التداولية هو النقاط الآتية:

1. اعتماد الجملة كأعلى مستوى للدراسة اللغوية.
2. حصر الدراسات في اللغة على كونها بنية معزولة عن سياقها.
3. اقتصرت الدراسات على الشكل اللغوي كبنية وإقصاء المعنى.
4. الاعتماد في الدراسة على اللغة (langue) وإهمال الظواهر الكلامية (paroles) باعتبارها فردية وعارضة ولا تصلح لأن تكون موضوعا للبحث اللغوي⁽³⁰⁾

وقد كان من جملة مظاهر العناية التي أولاها التداوليون لتعليمية اللغة العربية مايلي:

العمل على اكتساب المتعلم القدرة على استعمال الجمل والعبارات المناسبة لسياق لغوي معين، ولموقف تواصلية معين في شكل وحدات تواصلية أكبر من الجملة التي وقفت عندها اللسانيات البنوية، إذ لا يكفي أن يكون المتعلم قادرا على قراءة الجمل وكتابتها بطريقة سليمة فقط كما عملت عليه الطريقة التقليدية، أن لا تكن اللغة المكتسبة وسيلة تواصل وتبليغ المعلومات أو الكلام عن الموجودات في العالم، كما يرى جاكوسون، بل يجب أن يكون المتكلم قادرا على التأثير في المتلقي، بتوظيفه مختلف الوظائف المرجعية، التعبيرية، التأثيرية، الجمالية.⁽³¹⁾

لا يكفي التواصل الجيد، بلغة صحيحة و رفيعة، بقدر ما يجب على المتكلم التحكم في المتغير اللغوي للتلازم مع الوضعيات التواصلية، لضمان أداء تواصلية اجتماعي سليم.

ذلك لأن العلاقات التفاعلية الحاصلة بين المتلافيين، في وضعيات ملفوظية معينة، تقتضي إدماج السياق والمقام والحال، للتحكم أكثر في المواقف اللغوية، وجعلها تؤدي مفعولها التأثيري⁽³²⁾ حيث إن "

اللغوي في التمارين التركيبية وحفظ القواعد اللغوية و كل ما ركز عليه الاتجاه البنوي الذي يراعي البني والأشكال اللغوية بمعزل عن استعمالها وعن سياقاتها. الأمر الذي أفقر الدراسات اللسانية وحصرها في إطار شكلائي محض⁽²⁴⁾.

وقد أسس تيار التداولية (pragmatique) الفيلسوف الأمريكي شارل موريس Charles Morris سنة 1938. وتمثل التداولية حسبه إحدى نواح ثلاثة، يمكن معالجة اللغة من خلالها:

1. التركيب: syntaxe ويعني العلاقات بين العلامات فيما بينها.
2. الدلالة: sémantique وتهتم بدراسة العلامات في علاقاتها بالواقع، أي علاقات العلامات بالأشياء والموجودات التي تدل عليها.
3. التداولية: تدرس علاقة العلامات بمستعملها، بظروف استعمالها و بآثار هذا الاستعمال على البنية اللغوية..و عليه تعرف التداولية بأنها دراسة اللغة في الاستعمال، يقول فان ديك: "تختص البراغماتية بوصفها علما، بتحليل الأفعال الكلامية ووظائف منطوقات لغوية وسماتها في عمليات الاتصال بوجه عام"⁽²⁵⁾.

لقد تداخلت في التداولية تخصصات عديدة، عملت على تعقيدها حيث أنها " لمبحث في قمة ازدهاره، لم يتحدد بعد في الحقيقة، ولم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها واصطلاحاتها، فهي تقع في مفترق الطرق، حيث تتلقى اللسانيات، والمنطق والسياسيات والفلسفة، وعلم النفس وعلم الاجتماع"⁽²⁶⁾ لذلك لم يحدد تعريفها بدقة كافية شافية وكلياتها الجامعة المانعة، ولعلنا نطلق من تلاقي العلوم السالفة الذكر، لنخلص إلى أن التداولية هي ذلك الإطار المعرفي الذي تجتمع فيه مجموعة من المقاربات المشتركة في معالجتها للقضايا اللغوية، وذلك من منطلق اهتمامها بأدوار فعالة في تفعيل و تبادل الكلام، وتوفيرها على المعطيات التواصلية الآتية:

المتكلمون (المتكلم والمتلقي).

السياق بمقامه وحاله.

الاستعمال العادي للتلفاقي للكلام انطلاقا من الواقع الاجتماعي⁽²⁷⁾.
أما فان ديك Dijk Van من رواد البحث في لسانيات النص فيرى أن التداولية علم يحلل الأفعال الكلامية ووظائف المنطوقات إذ يقول: " تختص البراغماتية بوصفها علما، بتحليل الأفعال الكلامية، ووظائف المنطوقات اللغوية و سماتها في عمليات الاتصال بوجه عام"⁽²⁸⁾ بحيث تهتم التداولية بالأفعال الكلامية، من قاعدة أن اللغة ليست لنقل المعلومات (إخبارية) إنما هي وسيلة عمل و تأثير في الغير، ومن هنا تتجلى نفعيتها، لدرجة أن الأمريكيان يعتمدون هذه النظرية (التداولية) في العمل السياسي للتأثير على الشعوب.

ولعل التقاء جملة من العلوم في تأليف التداولية تجسيد الثورة العلمية التي تشهدها الساحة في شتى الميادين، لاسميا ميدان التواصل الذي أدى إلى عولة العالم و اختصاره في شكل شبكة مترابطة الأطراف سخرت لنقل المعلومة أينما كانت، فلم تبق ولم تتر، وهذا في

ومن خلال ما سبق يمكن القول "إن المتعلم بمجرد دخوله في عملية تواصلية فإنه يقوم بجهد مضمّن كي يندمج في السياق التواصلية العام، ولا يمكنه ذلك إلا إذا كان يمتلك لأغلب التقنيات التي أعدها اللغة الهدف" (36) واطلاقاً من ذلك، فإن المعلم مطالب بمراعاة كافة المعارف اللسانية، لإعداد مدوّته بالكيفية التي تلي حاجة المتعلم، ويتم ذلك استناداً إلى مناهج تيسر و تسهل له عملية تبليغ المعلومة، كما يجب أن تبنى المدونة اعتماداً على الحوارية، التي تندخل فيها المعارف اللسانية، وغير اللسانية، يقول وولف كانغ: "هناك بحوث نادرة حول طريقة الاكتساب القائمة على مسار جريان الأحداث بالفعل، مما يؤدي إلى القول بأن معرفتنا حول تفاعل المعارف السياقية والمعارف التي تتضمنها الملفوظات في اللغات المتطورة عامة قليلة" (37).

إن الملفوظية في إطارها التداولي تركز على الحوار التلقائي، والتواصل المبسط، في المراحل الأولى للتعلم، بالشكل الذي لا يكون معه الطفل واعياً بالمفاهيم المحددة والتقنية المعيارية، التي تتطلب جهداً عقلياً، إذ كل ما في الأمر تحوّل على أن تكون استجابته اللغوية سليمة وقابلة للتطور، حيث يتطلب الأمر أن تكون تلك المحاورات منسجمة، بما يحدث في الواقع ومطابقة له، ويتم ذلك بغض النظر عن المعارف اللسانية، التي تؤجل إلى مراحل لاحقة إلا من التصويبات العفوية والتلقائية لتقويم اللسان، والتهيئة للدمج السليم للمتعلم.

وما يجب أن نلفت إليه الانتباه هنا، هو أن التداولية لا تعمل بمفردها رغم تحييد اللسانيات البنوية بالنسبة للمتعلم (الطفل) إلى وقت لاحق، إذ إن الوظيفة التواصلية للغة هي من صميم اللسانيات البنوية، رغم حصرها للتواصل في الإخبار ونقل المعلومة، ولا محيد للمعلم عنها، في بناء مدوّته التعليمية، لكونها تتوقف عند حدود الجملة كوحدة لسانية كبرى، يمكن له بضم هذه الوحدات والتأليف بينها، خلق مجال للفعل الكلامي الذي يحسب للسانيات التداولية ومن هنا يتبين أن التداولية تنطلق من دعائم بنوية فهي تركز على الوظيفة التواصلية للغة، باعتبار أن التواصل تفاعل بين المتكلمين، يتحقق عن طريق جمل متألّفة في شكل إنجاز كلامي أشمل وأكبر مما توقفت عنده اللسانيات البنوية (الجملة)، والذي يتمثل في الخطاب نصاً كان أو حواراً.

هذا على مستوى البنية أما على المستوى الدلالي فإن التداولية تستدرك ما تخلت عنه البنوية، ألا وهو المعنى، الذي تستغله التداولية لتنوع أساليب الكلام وتغييرها، من موقف إلى آخر، لكونها تسعى إلى اكتساب الكفاية التواصلية، والتأثير على السامع (المتلقي)، ولا يمكن أن يتم ذلك في غياب المعنى، كركن أساس تستند عليه اللغة، ولذا يمكن القول أنه "كلما حاول البيداغوجيون توضيح - بهدي من اللسانيات التداولية- كل الجوانب التي يمكن إدراجها تحت مفهوم التحكم في اللغة كوسيلة تواصل، لا يلبثوا أن يكتشفوا أن النظريات والدراسات اللغوية التي تبني على أساسها تعليمية اللغات، سواء تعلق الأمر بالنحو التقليدي البنوي أو التوليدي التحويلي، هي دراسات ناقصة" (38) ولم

الملفوظية تبدأ مناوراتها الاستكشافية من الملفوظ باتجاه السياق، ولكنها لا ترفض النتائج الصالحة التي تتوصل إليها التيارات اللسانية الأخرى، إن لم تكن مناقضة للمنهجية العامة لها ويمكننا أن ندرج ضمنها تلك التداوليات المتعددة" (33).

ومن منطلقات إنتاج الملفوظ- ضمن النظرية التداولية- من قبل المتكلم، وفهمه من قبل السامع، لا بد من الاستناد باستمرار إلى معارف لسانية ضرورية، تعد جوهر العملية التعليمية، كمعرفة المستويات اللسانية من أصوات ومعجم وتركيب ودلالة، وأساليب اللغة (34) التي لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض، كأن يخاطب أحدنا طلبته بهذا الملفوظ البسيط قائلاً: الامتحانات بعد أسبوع، فلا يمكن الإحاطة بغزاه الدلالي، ما لم يكن المتلقي ملماً بمعرفة العناصر المشكلة للملفوظ، كالوحدة المحورية (الامتحانات) الدالة معجباً على الإجراءات التقييمية لاختبار مدى تعلمات الطالب، ثم الوحدة (بعد) الدالة على الظرفية الزمنية، التي يشار بها إلى ما وراء المدة الزمنية المحددة، ثم الوحدة (أسبوع) الدالة على مدة زمنية قدرها سبعة أيام، إضافة إلى السياق التلفظي والمقام أو المكان والوضع الذي حدث فيه التلفظ، كلها عوامل مساعدة على اكتساب اللغة والتفاعل عند سماع الكلام.

وهذه العوامل الغير لسانية (السياق، المقام، الحال) لها تأثير سحري في تعلم اللغة الأولى (الأم) عند الطفل، وتعمل على إكسابه المعرفة اللسانية، بتلقائية ودون عناء، كأن يمد المخاطب يده مشيراً إلى الماء، ويكلم صبياً (3-4) سنوات: أعطني أشرب الماء، فيمد الصبي الماء بكل عفوية، ومع تكرار الوضعية، يتعلم الصبي الوحدات اللسانية: (أعطيني + أشرب + ماء)، فلو اجتهد الأولياء قليلاً في مخاطبة الصبية، من الجيل الحالي، بألفاظ فصيحة وسليمة، لكان ذلك كافياً لإعدادهم لمرحلة المدرسة، التي تعاني في تعلم اللغة الفصحى، التي تعد تقريباً كأها لغة ثانية نظراً للمعجم البارج الذي يتزود به الطفل في البيت وخارجه، والذي يعد بمثابة اللغة الأولى (الأم) إلا من نسبة ضئيلة ذات صلة باللفظ الفصيح.

انظر إلى قول الفاسي الفهري: "طبعاً لا نحتاج إلى كبير عناء لنبين أن اللغة العربية ليست لغة أولى فالطفل العربي لا يخرج إلى محيطه ليلتقط لغة عربية فصيحة متداولة في الأفواه بنفس الكيفية التي يخرج بها الطفل الفرنسي إلى محيطه ليتعلم الفرنسية أو الإنجليزي ليكتسب الإنجليزية أو المغربي ليكتسب العامية العربية المغربية أو الأمازيغية. إن العربية الفصيحة ليست لغة أولى في محدداتها النفسية والإدراكية والذاكرية" (35) ولكن على الرغم من ذلك فإن الطفل العربي يكتسب العربية الفصحى بوتيرة متسارعة أفضل من اكتسابه اللغات الأجنبية، كالفرنسية والإنجليزية، نظراً للتقارب بين اللهجة المحلية واللغة الفصحى من جهة، واستعمال العربية الفصحى كعامل أساس لسائر المعارف الأخرى التي تقدمها المدرسة من جهة ثانية.

- 8)- Roman Jakobson, " The Emphatic Phonemes in Arabic," in Salman Al - Ani (ed) Readings in Arabic Linguistics (Bloomington: Indiana University Linguistic Club. 1978) PP 269 - 283.
- 9)- Zellig S. Harris, "The Phonemes of Moroccan Arabic", in Salman Al - Ani, pp.. 247 - 267.
- 10)- Joseph H Greenberg, "The Patterning of Root Morphemes in Semitic," in Salman Al Ani. (ed) Reading in Arabic Linguistics (Bloomington: Indiana University Linguistic Club. 1978) PP. 431 - 456.
- 11)- Joseph H. Greenberg, Ibid. P.432
- 12)- J.R. Firth. "Sounds and Prosodies," in Eric P. Hamp, Fred W. Householder, and Robert Austerlitz. Readings in Linguistics II (Chicago: The University of Chicago. 1996) PP. 175 - 191.
- 13)- Fred Householder. "Preface," in Salman Al-Ani. (ed) Readings in Arabic Linguistics (Bloomington: Indiana University Linguistic Club. 1978). P.18.
- 14)- Michael B. Brame. Arabic phonology: Implications for Phonological Theory and Historical Semitic. Ph. D. Dissertation MIT, 1970
- 15)- ينظر: حمزة المزيني، مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة، مرجع سابق، ص 42 .
- 16)- المرجع نفسه، ص 51.
- 17)- ينظر: المرجع نفسه، الخاتمة، ص 56 .
- 18)- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2، 2005، ص 208 .
- 19)- Georges Mounin, Dictionnaire de la Linguistique, Quadrigue/Puf, paris, 4edt, 2004 . p204.
- 20)- Andree Martinet, Elements de Linguistique Generale, ARMAND COLIN, p 6.
- 21)- F.de Saussure, Cours de Linguistique generale, ENAG/EDITIONS, 2edt ,1994. p376.
- 22)- ينظر: الطيب دبة، مبادئ اللسانيات البنوية دراسة تحليلية إستراتيجية، دار القصة للنشر، 2001، ص 31 .
- 23)- ينظر: جيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، (د.ت)، الجزائر، ص 8.
- 24)- ينظر: محمد الأخضر الصبيحي، مجلة منتدى الأستاذ، العدد 3 أبريل 2007، المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة. ص 36.
- 25)- ينظر: المرجع نفسه، ص 38 .
- 26)- علي آيت أوشان، السياق و النص الشعري من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء- 2000- ص 57.
- 27)- Armengaud (Françoise), La pragmatique, presses universitaire de France: 2eme ed, 1985. p6.

تبلغ بعد وجه الكمال وذلك من الكثير من النواحي، كالتركيز في دراستها على النموذج اللغوي الراقي، وإهال مستويات اللغة في شكلها الاجتماعي الواقعي المبسط، وعالجت بنية الجملة كأقصى وحدة لسانية- وأهملت النص، والحوار كخطاب أوسع وأشمل.

ويمثل تعلم اللغة حسب بعض من استدركوها هفوات البنيوية وعلى رأسهم "جاكوفيتش" في اكتشافها أولاً، ثم إعادة تأليف تدريجي لتراكيبها وقواعدها، وذلك اعتماداً على طرق استنتاجية واستقرائية، نابعة من كليات لغوية غريزية تكمن ضمن معرفة الفرد المكتسبة كلغة أم، وكذلك من خلال معاينته المقارنة لعينات لغوية أخرى، من مواقف تواصلية حقيقية، وهو الاكتشاف الذي يختلف من متعلم لآخر، حسب الاستعدادات الخاصة من جهة، وإستراتيجية التعلم من جهة ثانية، الأمر الذي ينفى تماماً وجود طريقة مثلى لاكتساب أي لغة، كما أن أنسب طريقة هي التي تتماشى وخصوصيات الفئة المستهدفة⁽³⁹⁾، فمثلاً: يجب أن تكيف المواقف التواصلية ضمن وضعيات تعليمية مختلفة، وفق البيئة التي يعيش فيها المتعلم، و الأشياء المحيطة به، حتى تكون الأفعال الكلامية من صميم الواقع، و تسهل عملية الاكتساب اللغوي.

مصباح محمد

الهوامش

- 1)- عبد الرحمن حاج صالح، ملتقى (اللسانيات العربية التطبيقية ومعالجة الإشارة والمعلومات)، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقتي - الرباط، 26 أيلول (سبتمبر) - 5 تشرين الأول (أكتوبر) 1983.
- 2)- ينظر: المرجع نفسه.
- 3)- النظرية: هي نظرة فلسفية إلى الظواهر الطبيعية، ومن ضمنها ظاهرة اللغة.
- 4)- المنهج: هو تطبيق واع لمقتضيات النظرية.
- 5)- النموذج: وجهة نظر علمية في موضوع ما، نظرية ومنهج، محدودة في الزمان وفي المكان.
- 6)- ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994. الذي يتناول فيه الباحث نظرية الكلام عند الجاحظ، وتحليل مفصل لأرائه اللسانية، كتصوره لظاهرة اللغة وموقفه من اللفظ والمعنى، ومقاييسه اللسانية والفنية في مجال المطابقة، زيادة على اهتمامه بالخارج الصوتية، وعبوب النطق والكلام الخلقية، واللغوية (نحوية و صرفية).
- 7)- ينظر: حمزة بن قبلان بن أحمد المزيني، مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 53، السنة الحادية والعشرون، ذو القعدة 1417هـ، ربيع الآخر 1418هـ، ص ص 11 - 63.

- (28)- المرجع نفسه ص 79.
- (29)- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصة، الجزائر، 2000، ص 177.
- (30)- ينظر: أحمد نخلة محمود، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2002، ص 53.
- (31)- ينظر: محمد الأخضر صبيحي، مجلة منتدى الأستاذ، مرجع سابق، ص 43.
- (32)- ينظر: صالح خديش، لسانيات الملفوظية وتعليمية اللغة، مجلة منتدى الأستاذ، العدد الأول أبريل 2005، المدرسة العليا للأساتذة، جامعة قسنطينة، ص 76.
- (33)- المرجع نفسه، ص 76.
- (34)- ينظر: المرجع نفسه ص 79.
- (35)- عبد القادر القاسمي الفهري، المعجم العربي نماذج تحليلية جديدة، ط 1 دار تونقال المغرب 1983، ص 20.
- (36)- صالح خديش، مرجع سابق ص 79.
- (37)- المرجع نفسه ص 82.
- (38)- محمد الأخضر الصبيحي، مجلة منتدى الأستاذ، مرجع سابق ص 45.
- (39)- ينظر المرجع نفسه، ص 47.